

غلظة واعلموا أن الله مع المتقين ﴿ وهذا أيضاً إرشاد آخر، بعدما أرشدهم إلى التدبير فيمن يباشر القتال، أرشدهم إلى أنهم يبديون بالأقرب فالأقرب من الكفار، والغلظة عليهم، والشدة في القتال، والشجاعة والثبات.

﴿واعلموا أن الله مع المتقين﴾ أي: وليكن لديكم علم أن المعونة من الله تنزل بحسب التقوى، فلازموا على تقوى الله، يُعِثْكُمْ وينصركم على عدوكم.

وهذا العموم في قوله: ﴿قاتلوا الذين يلونكم من الكفار﴾ خصوص بما إذا كانت المصلحة في قتال غير الذين يلوننا، وأنواع المصالح كثيرة جداً.

﴿١٢٤ - ١٢٦﴾ ﴿وإذا ما أنزلت سورة فممنهم من يقول أياكم زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون﴾ وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون ﴿أولا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون﴾ يقول تعالى: مبيناً حال المنافقين، وحال المؤمنين عند نزول القرآن، وتفاوت ما بين الفريقين فقال: ﴿وإذا ما أنزلت سورة﴾ فيها الأمر، والنهي، والخبر عن نفسه الكريمة، وعن الأمور الغائبة، والحث على الجهاد.

﴿فممنهم من يقول أياكم زادته هذه إيماناً﴾ أي: حصل الاستفهام لمن حصل له الإيمان بها من الطائفتين.

قال تعالى - مبيناً الحال الواقعة -: ﴿فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً﴾ بالعلم بها، وفهمها واعتقادها، والعمل بها، والرغبة في فعل الخير، والانكفاف عن فعل الشر.

﴿وهم يستبشرون﴾ أي: يبشرون بعضهم بعضاً بما من الله عليهم من آياته، والتوفيق لفهمها والعمل بها. وهذا دال على انشراح صدورهم وآيات الله، وطمأنينة قلوبهم، وسرعة

انقيادهم لما تحثهم عليه.

﴿وأما الذين في قلوبهم مرض﴾ أي: شك ونفاق ﴿فزادتهم رجساً إلى رجسهم﴾ أي: مرضاً إلى مرضهم، وشكاً إلى شكهم، من حيث إنهم كفروا بها وعاندوها وأعرضوا عنها، فازداد لذلك مرضهم، وترامى بهم إلى الهلاك ﴿والتطبع على قلوبهم، حتى﴾ ماتوا وهم كافرون ﴿.

وهذا عقوبة لهم، لأنهم كفروا بآيات الله وعصوا رسوله، فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه.

قال تعالى - موبخاً لهم على إقامتهم على ما هم عليه من الكفر والنفاق -: ﴿أولا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين﴾ بما يصيبهم من البلياء والأمراض، وبما يتتلون من الأوامر الإلهية التي يراد بها اختبارهم.

﴿ثم لا يتوبون﴾ عما هم عليه من الشر ﴿ولا هم يذكرون﴾ ما ينفعهم، فيفعلونه، وما يضرهم فيتركونه.

فإنه تعالى يبتليهم - كما هي سنته في سائر الأمم - بالسراء والضراء وبالآوامر والنواهي ليرجعوا إليه، ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون.

وفي هذه الآيات دليل على أن الإيمان يزيد وينقص، وأنه ينبغي للمؤمن أن يتفقد إيمانه ويتعاهده، فيجده وينميه، ليكون دائماً في صعود.

﴿١٢٧﴾ وقوله: ﴿وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون﴾ يعني: أن المنافقين الذين يجذرون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم، إذا نزلت سورة ليؤمنوا بها، ويعملوا بمضمونها ﴿نظر بعضهم إلى بعض﴾ جازمين على ترك العمل بها، ينتظرون الفرصة في الاختفاء عن أعين المؤمنين، ويقولون: ﴿هل يراكم من أحد ثم انصرفوا﴾



متسللين، وانقلبوا معرضين، فجازاهم الله بعقوبة من جنس عملهم، فكما انصرفوا عن العمل ﴿صرف الله قلوبهم﴾ أي: صدها عن الحق وخذلها.

﴿بأنهم قوم لا يفقهون﴾ فقهاً يتفهم، فإنهم لو فقهوا، لكانوا إذا نزلت سورة آمنوا بها، وانقادوا لأمرها.

والمقصود من هذا بيان شدة نفورهم عن الجهاد وغيره من شرائع الإيمان، كما قال تعالى عنهم: ﴿فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر الغشي عليه من الموت﴾.

﴿١٢٨ - ١٢٩﴾ ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم﴾ يمتن [تعالى] على عباده المؤمنين بما بعث فيهم النبي الأمي الذي من أنفسهم، يعرفون حاله، ويتمكنون من الأخذ عنه، ولا يأنفون عن الانقياد له، وهو ﴿صالحهم في غاية النصح لهم، والسعي في مصالحهم.

﴿عزيز عليه ما عنتم﴾ أي: يشق عليه الأمر الذي يشق عليكم ويمتكم.

تفسير سورة يونس مكية

ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون * إليه مرجعكم جميعاً وعد الله حقاً إنه يبدأ الخلق ثم يعيده ليجزي الذين آمنوا و عملوا الصالحات بالقسط والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون ﴿١﴾ يقول تعالى مبيناً لربوبيته وإلهيته وعظمته: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ مع أنه قادر على خلقها في لحظة واحدة، ولكن لما له في ذلك من الحكمة الإلهية، ولأنه رفيق في أفعاله.

ومن جملة حكمته فيها، أنه خلقها بالحق وللحق، ليعرف بأسمائه وصفاته ويفرد بالعبادة.

﴿ثم﴾ بعد خلق السماوات والأرض ﴿استوى على العرش﴾ استواء يليق بعظمته.

﴿يدبر الأمر﴾ في العالم العلوي والسفلي، من الإمامة والإحياء، وإنزال الأرزاق، ومدولة الأيام بين الناس، وكشف الضر عن المضرورين، وإجابة سؤالات السائلين.

فأنواع التدابير نازلة منه وصاعدة إليه، وجميع الخلق مدعون لعزته^(٢)، خاضعون لعظمته وسلطانه.

﴿ما من شفيع إلا من بعد إذنه﴾ فلا يقدم أحد منهم على الشفاعة، ولو كان أفضل الخلق، حتى يأذن الله ولا يأذن، إلا لمن ارتضى، ولا يرتضى إلا أهل الإخلاص والتوحيد له.

﴿ذلكم﴾ الذي هذا شأنه ﴿الله ربكم﴾ أي: هو الله الذي له وصف الإلهية الجامعة لصفات الكمال، ووصف الربوبية الجامع لصفات الأفعال.

﴿فاعبدوه﴾ أي: أفردوه بجميع ما تقدرون عليه من أنواع العبودية، ﴿أفلا تذكرون﴾ الأدلة الدالة على أنه وحده المعبود المحمود، ذو الجلال والإكرام. فلما ذكر حكمه القدري وهو التدبير العام، وحكمه الديني وهو

﴿١ - ٢﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ تلك آيات الكتاب الحكيم * أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون إن هذا لساحر مبين ﴿١﴾ يقول تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ مع أنه قادر على خلقها في لحظة واحدة، ولكن لما له في ذلك من الحكمة الإلهية، ولأنه رفيق في أفعاله.

ومع هذا فأعرض أكثرهم فهم لا يعلمون، فتعجبوا ﴿أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾ وعذاب الله، وخوفهم نقم الله، وذكرهم بآيات الله.

﴿وبشر الذين آمنوا﴾ إيماناً صادقاً ﴿أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صَدَقَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي: لهم جزاء موفور^(١)، وثواب مذخور عند ربهم بما قدموه وأسلموه من الأعمال الصالحة الصادقة.

فتعجب الكافرون من هذا الرجل العظيم تعجباً حملهم على الكفر به، ف ﴿قال الكافرون﴾ عنه: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ﴾ أي: بين السحر، لا يخفى بزعمهم على أحد، وهذا من سفههم وعنادهم، فإنهم تعجبوا من أمر ليس مما يتعجب منه ويستغرب، وإنما يتعجب من جهالتهم وعدم معرفتهم بمصالحهم.

كيف لم يؤمنوا بهذا الرسول الكريم، الذي بعثه الله من أنفسهم، يعرفونه حق المعرفة، فردوا دعوته، وحرصوا على إبطال دينه، والله متم نوره ولو كره الكافرون.

﴿٣ - ٤﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه ذلكم الله



﴿حريص عليكم﴾ فيحب لكم الخير، ويسعى جهده في إيصاله إليكم، ويحرص على هدايتكم إلى الإيمان، ويكره لكم الشر، ويسعى جهده في تنفيركم عنه. ﴿بالؤمنين رؤوف رحيم﴾ أي: شديد الرأفة والرحمة بهم، أرحم بهم من والديهم.

ولهذا كان حقه مقدماً على سائر حقوق الخلق، وواجب على الأمة الإيمان به، وتعظيمه، وتعزيره، وتوقيره ﴿فإن﴾ آمنوا، فذلك حظهم وتوفيقهم، وإن ﴿تولوا﴾ عن الإيمان والعمل، فامض على سبيلك، ولا تنزل في دعوتك، وقل ﴿حسبي الله﴾ أي: الله كافي في جميع ما أمهني، ﴿لا إله إلا هو﴾ أي: لا معبود بحق سواه.

﴿عليه توكلت﴾ أي: اعتمدت ووثقت به، في جلب ما ينفع، ودفع ما يضر، ﴿وهو رب العرش العظيم﴾ الذي هو أعظم المخلوقات. وإذا كان رب العرش العظيم، الذي وسع المخلوقات، ان رباً لما دونه من باب أولى وأحرى.

تم تفسير سورة التوبة بعون الله ومته
فله الحمد أولاً وآخراً
وظاهراً وباطناً

(٢) في ب: لعزته.

(١) كذا في ب وفي أ: موفور.

شرعه، الذي مضمونه ومقصوده عبادته وحده لا شريك له، ذكر الحكم الجزائي، وهو مجازاته على الأعمال بعد الموت، فقال: ﴿إليه مرجعكم جميعاً﴾ أي: سيجمعكم بعد موتكم ليقات يوم معلوم.

﴿إنه يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ فالقادر على ابتداء الخلق قادر على إعادته، والذي يرى ابتدائه بالخلق، ثم ينكر إعادته للخلق، فهو فاقد العقل منكر لأحد المثليين مع إثبات ما هو أولى منه، فهذا دليل عقلي واضح على المعاد. ثم ذكر الدليل النقلى فقال:

﴿وعد الله حقاً﴾ أي: وعده صادق لا بد من إتمامه.

﴿ليجزى الذين آمنوا﴾ بقلوبهم بما أمرهم الله بالإيمان به.

﴿وعملوا الصالحات﴾ بجوارحهم،

من واجبات ومستحبات، ﴿بالقسط﴾ أي: بإيمانهم وأعمالهم، جزاء قد بينه لعباده، وأخير أنه لا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ﴿والذين كفروا﴾ بآيات الله وكذبوا رسل الله.

﴿لهم شراب من حميم﴾ أي: ماء حار، يشوي الوجوه، ويقطع الأمعاء.

﴿وعذاب أليم﴾ من سائر أصناف العذاب ﴿بما كانوا يكفرون﴾ أي:

بسبب كفرهم وظلمهم، وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون.

﴿٥ - ٦﴾ ﴿هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون﴾ إن في اختلاف الليل والنهار

وما خلق الله في السماوات والأرض آيات لقوم يتقون﴾ لما قرر ربوبيته وإلهيته، ذكر الأدلة العقلية الأفقية

الدالة على ذلك وعلى كماله، في أسمائه وصفاته، من الشمس والقمر،

والسماوات والأرض وجميع ما خلق فيهما من سائر أصناف المخلوقات،

وأخير أنها آيات ﴿لقوم يعلمون﴾ و﴿لقوم يتقون﴾.

فإن العلم يهدي إلى معرفة الدلالة فيها، وكيفية استنباط الدليل^(١) على أقرب وجه، والتقوى تحدث في القلب الرغبة في الخير، والرغبة من الشر، الناشئين عن الأدلة والبراهين، وعن العلم واليقين.

وحاصل ذلك أن مجرد خلق هذه المخلوقات بهذه الصفة، دال على كمال

قدرة الله تعالى، وعلمه، وحياته، وقبوميته، وما فيها من الأحكام

والإتقان والإبداع والحسن، دال على كمال حكمة الله، وحسن خلقه وسعة

علمه. وما فيها من أنواع المنافع والمصالح - كجعل الشمس ضياء،

والقمر نوراً، يحصل بهما من النفع الضروري وغيره ما يحصل - يدل ذلك

على رحمة الله تعالى واعتنائه بعباده وسعة بره وإحسانه، وما فيها من

التخصيصات دال على مشيئة الله وإرادته النافذة.

وذلك دال على أنه وحده المعبود المحبوب المحمود، ذو الجلال والإكرام

والأوصاف العظام، الذي لا تنبغي الرغبة والرغبة إلا إليه، ولا يصرف

خالص الدعاء إلا له، لا لغيره من المخلوقات المربوبات، المفتقرات

إلى الله في جميع شؤونها.

وفي هذه الآيات الحث والترغيب على التفكير في مخلوقات الله، والنظر

فيها بعين الاعتبار، فإن بذلك تنفتح البصيرة، ويزداد الإيمان والعقل،

وتقوى القرينة، وفي إهمال ذلك، تهاون بما أمر الله به، وإغلاق لزيادة

الإيمان، وجود للذهن والقرينة. ﴿٧ - ٨﴾ ﴿إن الذين لا يرجون

لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون﴾ أولئك

مأواهم النار بما كانوا يكسبون﴾ يقول تعالى: ﴿إن الذين لا يرجون لقاءنا﴾

أي: لا يطمعون بلقاء الله، الذي هو أكبر ما طمع فيه الطامعون، وأعل ما أمله المؤمنون، بل أعرضوا عن ذلك،

وربما كذبوا به ﴿ورضوا بالحياة الدنيا﴾

بدلاً عن الآخرة.

﴿واطمأنوا بها﴾ أي: ركنوا إليها،

وجعلوها غاية مرامهم^(٢) ونهاية قصدهم، فسعوا لها وأكبوا على لذاتها

وشهواتها، بأي: طريق حصلت حصلوها، ومن أي: وجه لاحت

ابتدروها، قد صرفوا إراداتهم ونياتهم وأفكارهم وأعمالهم إليها.

فكأنهم خلقوا للبقاء فيها، وكأنها ليست دار عمر، يتزود منها المسافرون

إلى الدار الباقية التي إليها يرحل الأولون والآخرون، وإلى تعيينها

ولذاتها شمر الموقنون.

﴿والذين هم عن آياتنا غافلون﴾ فلا ينتفعون بالآيات القرآنية،

ولا بالآيات الأفقية والنفسية، والإعراض عن الدليل مستلزم

للإعراض والغفلة، عن المذكور المقصود.

﴿أولئك﴾ الذين هذا وصفهم ﴿مأواهم النار﴾ أي: مقرهم

ومسكنهم التي لا يرحلون عنها. ﴿بما كانوا يكسبون﴾ من الكفر

والشرك وأنواع المعاصي، فلما ذكر عقابهم ذكر ثواب المطيعين، فقال:

﴿٩ - ١٠﴾ ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم

تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم﴾ دعواهم فيها سبحانه اللهم

ونجيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين﴾ يقول تعالى:

﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي: جمعوا بين الإيمان، والقيام

بموجبه ومقتضاه من الأعمال الصالحة، المشتملة على أعمال القلوب

وأعمال الجوارح، على وجه الإخلاص والمتابعة.

﴿يهديم ربهم بإيمانهم﴾ أي: بسبب ما معهم من الإيمان يثيبهم الله

أعظم الثواب، وهو الهداية، فيعلمهم ما ينفعهم، ويمن عليهم بالأعمال

الناشئة عن الهداية، ويهديهم للنظر في آياته، ويهديهم في هذه الدار إلى

(١) في ب: الدلائل.

(٢) في ب: أمرهم.

﴿١٣ - ١٤﴾ ﴿ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا يؤمنوا كذلك نجزي القوم المجرمين﴾ ثم جعلناكم خلّاتف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون ﴿يجبر تعالى أنه أهلك الأمم الماضية بظلمهم وكفرهم، بعدما جاءتهم البينات على أيدي الرسل تبين الحق فلم يتقادوا لها ولم يؤمنوا. فأحل بهم عقابه الذي لا يرد عن كل مجرم متجرىء على محارم الله، وهذه سنته في جميع الأمم.

﴿ثم جعلناكم﴾ أيها المخاطبون ﴿خلّاتف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون﴾ فإن أنتم اعتبرتم واتعظتم بمن قبلكم واتبعتم آيات الله وصدقتم رسله، نجوتهم في الدنيا والآخرة.

وإن فعلتم كفعل الظالمين قبلكم، أحل بكم ما أحل بهم، ومن أنذر فقد أعذر.

﴿١٥ - ١٧﴾ ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إليّ إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم﴾ قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته إنه لا يفلح المجرمون﴾ يذكر تعالى تعنت الكذابين لرسوله محمد ﷺ، وأنهم إذا تتلى عليهم آيات الله القرآنية المبينة للحق، أعرضوا عنها، وطلبوا وجه التعنت فقالوا، جراءة منهم وظلماً: ﴿ائت بقرآن غير هذا أو بدله﴾ فقيحهم الله، ما أجرأهم على الله، وأشدّهم ظلماً ورداً لآياته.

فإذا كان الرسول العظيم يأمره الله أن يقول لهم: ﴿قل ما يكون لي﴾ أي: ما ينبغي ولا يليق ﴿أن أبدله من تلقاء نفسي﴾ فإني رسول محض، ليس لي من الأمر شيء، ﴿إن أتبع إلا ما يوحى

ذلك، كما يعجل لهم الخير إذا أتوا بأسبابه﴾ لقضي إليهم أجلهم ﴿أي: لمحقتهم العقوبة، ولكنه تعالى يمهّلهم ولا يمهّلهم، ويعفو عن كثير من حقوقه، فلو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك على ظهرها من دابة.

ويدخل في هذا أن العبد إذا غضب على أولاده أو أهله أو ماله، ربما دعا عليهم دعوة لو قبلت منه لهلكوا، ولأضره ذلك غاية الضرر، ولكنه تعالى حلِيم حكيم.

وقوله: ﴿فنذر الذين لا يرجون لقاءنا﴾ أي: لا يؤمنون بالآخرة، فلذلك لا يستعدون لها، ولا يعملون ما ينتجهم من عذاب الله، ﴿في طغيانهم﴾ أي: باطلهم، الذي جاوزوا به الحق والحد.

﴿يعمّهون﴾ يترددون حائرين، لا يهتدون السبيل ولا يوفقون لأقوم دليل، وذلك عقوبة لهم^(١) على ظلمهم، وكفرهم بآيات الله.

﴿١٢﴾ ﴿وإذا من الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضره مسه كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون﴾ وهذا إخبار عن طبيعة الإنسان من حيث هو، وأنه إذا مسه ضر، من مرض أو مصيبة، اجتهد في الدعاء، وسأل الله في جميع أحواله، قائماً وقاعداً ومضطجعاً، وألح في الدعاء ليكشف الله عنه ضره.

﴿فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضره مسه﴾ أي: استمر في غفلته معرضاً عن ربه، كأنه ما جاءه ضره، فكشفه الله عنه، فأبي: ظلم أعظم من هذا الظلم!!؟ يطلب من الله قضاء غرضه، فإذا أناله إياه لم ينظر إلى حق ربه، وكأنه ليس عليه الله حق. وهذا تزيين من الشيطان، زين له ما كان مستهجنًا مستحباً في العقول والفطر.

﴿كذلك زين للمسرفين﴾ أي: المتجاوزين للحد ﴿ما كانوا يعملون﴾.

الصرط المستقيم وفي الصراط المستقيم، وفي دار الجزاء إلى الصراط الموصل إلى جنات النعيم، ولهذا قال: ﴿تجري من تحتهم الأنهار﴾ الجارية على الدوام ﴿في جنات النعيم﴾ أضافها الله إلى النعيم، لاشتمالها على النعيم التام، نعيم القلب بالفرح والسرور والبهجة والخبور، ورؤية الرحمن وسماع كلامه، والاعتباط برضاه وقربه، ولقاء الأحبة والإخوان، والتمتع بالاجتماع بهم، وسماع الأصوات الطربيات، والنعنعات المشجيات، والمناظر المفرحات. ونعيم البدن بأنواع المآكل والمشرب، والمناكح، ونحو ذلك، مما لا تعلمه النفوس، ولا خطر ببال أحد، أو قدر أن يصفه الواصفون.

﴿دعواهم فيها سبحانك اللهم﴾ أي: عبادتهم فيها لله، أولها تسبيح لله وتنزيه له عن النقصات، وآخرها تمجيد لله، فالتكليف سقطت عنهم في دار الجزاء، وإنما بقي لهم أكمل اللذات، الذي هو ألد عليهم من المآكل اللذيذة، ألا وهو ذكر الله الذي تطمئن به القلوب، وتفرح به الأرواح، وهو لهم بمنزلة النَّفْس، من دون كلفة ومشقة.

﴿و﴾ أما ﴿تعيّتهم﴾ فيما بينهم عند التلاقي والتزاور، فهو السلام، أي: كلام سالم من اللغو والإثم، موصوف بأنه ﴿سلام﴾ وقد قيل في تفسير قوله: ﴿دعواهم فيها سبحانك﴾ إلى آخر الآية، أن أهل الجنة - إذا احتاجوا إلى الطعام والشراب ونحوهما - قالوا سبحانك اللهم، فأحضر لهم في الحال.

فإذا فرغوا قالوا: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾.

﴿١١﴾ ﴿ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضي إليهم أجلهم فنذر الذين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم يعمهون﴾ وهذا من لطفه وإحسانه بعباده، أنه لو عجل لهم الشر إذا أتوا بأسبابه، وبأدركهم بالعقوبة على

(١) كذا في ب، وفي أ: عقوبة منه.

نسوا تلك الشدة وذلك الدعاء، وما ألزموه أنفسهم، فأشركوا بالله، من اعترفوا بأنه لا ينجيهم من الشدائد، ولا يدفع عنهم المضايق، فهلا أخلصوا لله العبادة في الرخاء، كما أخلصوه في الشدة؟! .

ولكن هذا البغي يعود وباله عليهم، ولهذا قال: ﴿يا أيها الناس إنما بغيتكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا﴾ أي:

غاية ما تؤملون ببغيتكم وشروءكم عن الإخلاص لله، أن تنالوا شيئاً من حطام الدنيا وجاهها التزير اليسير الذي سينقضي سريعاً، ويمضي جميعاً، ثم تنتقلون عنه بالرغم.

﴿ثم إلينا مرجعكم﴾ في يوم القيامة ﴿فتنبئكم بما كنتم تعملون﴾ وفي هذا غاية التحذير لهم عن الاستمرار على عملهم.

﴿٢٤﴾ ﴿إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها آتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس كذلك نفضل الآيات لقوم يتفكرون﴾ وهذا المثل من أحسن الأمثلة، وهو مطابق لحالة الدنيا، فإن لذاتها وشهواتها وجاهها ونحو ذلك يزهو لصاحبه إن زها وقتاً قصيراً، فإذا استكمل وتم اضمحل، وزال عن صاحبه، أو زال صاحبه عنه، فأصبح صفر اليدين منها، ممثلاً القلب من همها وحزنها وحسرتها.

فذلك ﴿كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض﴾ أي: نبت فيها من كل صنف، وزوج بهيج ﴿مما يأكل الناس﴾ كالحبوب والثمار ﴿ومما تأكل الأنعام﴾ كأنواع العشب، والكلا المختلف الأصناف.

﴿حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت﴾ أي: تزخرفت في منظرها، واكتست في زينتها، فصارت بهجة للناظرين، ونزهة للمتفرجين، وآية

آياتنا﴾ أي: يسعون بالباطل ليطلبوا به الحق.

﴿قل الله أسرع مكرًا﴾ فإن المكر السئ لا يجت إلا بأهله، فمقصودهم منعكس عليهم، ولم يسلموا من التبعة، بل تكتب الملائكة عليهم ما يعملون، ويحصيه الله عليهم، ثم يجازيهم [الله] عليه أوفر الجزاء.

﴿٢٢ - ٢٣﴾ ﴿هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ربيع عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين﴾ فلما

أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق يا أيها الناس إنما بغيتكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم إلينا مرجعكم فتنبئكم بما كنتم تعملون﴾ لما ذكر تعالى القاعدة العامة في أحوال الناس عند إصابة الرحمة لهم بعد الضراء، واليسر بعد العسر، ذكر حالة تؤيد ذلك وهي حالهم في البحر عند اشتداده، واخلوف من عواقبه، فقال: ﴿هو الذي يسيركم في البر والبحر﴾ بما يسر لكم من الأسباب المسيرة^(١) لكم فيها، وهداكم إليها.

﴿حتى إذا كنتم في الفلك﴾ أي: السفن البحرية ﴿وجرين بهم بريح طيبة﴾ موافقة لما يهونه من غير انزعاج ولا مشقة.

﴿وفرحوا بها﴾ واطمأنوا إليها، فبينما هم كذلك، إذ ﴿جاءتها ربيع عاصف﴾ شديدة الهبوب ﴿وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم﴾ أي: عرفوا أنه الهلاك، فانقطع حينئذ تعلقهم بالمخلوقين، وعرفوا أنه لا ينجيهم من هذه الشدة إلا الله وحده، فدعوه مخلصين له الدين ووعدوا من أنفسهم على وجه الإلزام، فقالوا: ﴿لئن أنجيتنا من هذه لكونن من الشاكرين﴾ فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق﴾ أي:



﴿ويقولون﴾ أي: المكذبون المتعنتون، ﴿لولا أنزل عليه آية من ربه﴾ يعنون: آيات الاقتراح التي يعينونها كقولهم: ﴿لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً﴾ الآيات.

وكقولهم: ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً﴾ الآيات.

﴿فقل﴾ لهم إذا طلبوا منك آية ﴿إنما الغيب لله﴾ أي: هو المحيط علماً بأحوال العباد، فيدبرهم بما يقتضيه علمه فيهم وحكمته البديعة، وليس لأحد تدبير في حكم ولا دليل، ولا غاية ولا تحليل.

﴿فانتظروا إني معكم من المنتظرين﴾ أي: كل ينتظر بصاحبه ما هو أهل له، فانتظروا لمن تكون العاقبة.

﴿٢١﴾ ﴿وإذا أدقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم إذا لهم مكر في آياتنا فكرون﴾ يقول تعالى: ﴿وإذا أدقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم﴾ كالصحة بعد المرض، والغنى بعد الفقر، والأمن بعد الخوف، نسوا ما أصابهم من الضراء، ولم يشكروا الله على الرخاء والرحمة، بل استمروا في طغيانهم ومكرهم.

ولهذا قال: ﴿إذا لهم مكر في

للمتصيرين، فصرت ترى لها منظراً عجيبياً ما بين أخضر، وأصفر، وأبيض وغيره.

﴿وظن أهلها أنهم قادرون عليها﴾ أي: حصل معهم طمع بأن ذلك سيستمر ويدوم، لوقوف إراداتهم عنده، وانتهاء مطالبهم فيه.

فبينما هم في تلك الحالة «أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كان لم تغن بالأمس» أي: كأنها ما كانت فهذه حالة الدنيا، سواء بسواء.

﴿كذلك نفصل الآيات﴾ أي: نبينها ونوضحها، بتقريب المعاني إلى الأذهان، وضرب الأمثال «لقوم يتفكرون» أي: يعملون أفكارهم فيما يفهمهم.

وأما الغافل المعرض، فهذا لا تنفعه الآيات، ولا يزيل عنه الشك البيان، ولما ذكر الله حال الدنيا وحاصل نعيمها، شوق إلى الدار الباقية، فقال:

﴿٢٥ - ٢٦﴾ «والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم * للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون».

عمّ تعالى عباده بالدعوة إلى دار السلام والحث على ذلك والترغيب، وخص بالهداية من شاء استخلاصه واصطفاه، فهذا فضله وإحسانه، والله يختص برحمته من يشاء، وذلك عدله وحكمته، وليس لأحد عليه حجة بعد البيان والرسل، وسمى الله الجنة «دار السلام» لسلامتها من جميع الآفات والنقائص، وذلك لكمال نعيمها وتمامه وبقائه، وحسنه من كل وجه.

ولما دعا إلى دار السلام، كأن النفوس تشوقت إلى الأعمال الموجبة

لها الموصلة إليها، فأخبر عنها بقوله: ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾ أي: للذين أحسنوا في عبادة الخالق، بأن عبده على وجه المراقبة والنصيحة في عبادته، وقاموا بما قدروا عليه منها، وأحسنوا إلى عباد الله بما يقدرون عليه من الإحسان القولي والفعل، من بذل الإحسان المالي، والإحسان البدني، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليم الجاهلين، ونصيحة المعرضين، وغير ذلك من وجوه البر والإحسان.

فهؤلاء الذين أحسنوا لهم «الحسنى» وهي الجنة الكاملة في حسناتها وزيادة» وهي النظر إلى وجه الله الكريم وسماع كلامه، والفوز برضاه والبهجة بقربه، فبهذا حصل لهم أعلى ما يتمناه المتمنون، ويسأل السائلون.

ثم ذكر اندفاع المحذور عنهم فقال: ﴿ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة﴾ أي: لا ينالهم مكروه بوجه من الوجوه، لأن المكروه إذا وقع بالإنسان، تبين ذلك في وجهه، وتغير وتكدر.

وأما هؤلاء - فهم كما^(١) قال الله عنهم - «تعرف في وجوههم نضرة النعيم» ﴿أولئك أصحاب الجنة﴾ الملازمون لها ﴿هم فيها خالدون﴾ لا يمحولون ولا يزولون، ولا يتغيرون.

﴿٢٧﴾ «والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة ما لهم من الله من عاصم كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلماً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون» لما ذكر أصحاب الجنة ذكر أصحاب النار، فذكر أن بضاعتهم التي اكتسبوها في الدنيا هي الأعمال السيئة المسخطة لله، من أنواع الكفر والتكذيب، وأصناف المعاصي، فجزاؤهم سيئة مثلها، أي:



جزاء يسوؤهم بحسب ما عملوا من السيئات على اختلاف أحوالهم.

﴿وترهقهم﴾ أي: تغشاهم «ذلة» في قلوبهم وخوف من عذاب الله، لا يدفعه عنهم دافع ولا يعصمهم منه عاصم، وتسري تلك الذلة الباطنة إلى ظاهرهم، فتكون سواداً في الوجوه^(٢).

﴿كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلماً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ فكم بين الفريقين من الفرق، ويا بعد ما بينهما من التفاوت!؟

﴿وجوه يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة * وجوه يومئذ باسرة * تظن أن يفعل بها فاقرة﴾ ﴿وجوه يومئذ مسفرة * ضاحكة مستبشرة * وجوه يومئذ عليها غبرة * ترهقها قتره * أولئك هم الكفرة الفجرة﴾.

﴿٢٨ - ٣٠﴾ «ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيلنا بينهم وقال شركاؤهم ما كنتم إيماناً تعبدون * فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين * هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت ووردوا إلى الله مولا هم الحق وضل عنهم ما كانوا

(٢) في ب: في وجوههم.

(١) في ب: فكما.

كإخراج أنواع الأشجار والنبات من الحبوب والنوى، وإخراج المؤمن من الكافر، والظائر من البيضة، ونحو ذلك، «ويخرج الميت من الحي» عكس هذه المذكورات، «ومن يدبر الأمر» في العالم العلوي والسفلي، وهذا شامل لجميع أنواع التدابير الإلهية، فإنك إذا سألتهم عن ذلك «فسيقولون الله» لأنهم يعترفون بجميع ذلك، وأن الله لا شريك له في شيء من المذكورات.

﴿فقل﴾ لهم الزمام بالخجة «أفلا تتقون» الله فتخلصون له العبادة وحده لا شريك له، وتخلعون ما تعبدون من دونه من الأنداد والأوثان.

﴿فذلكم﴾ الذي وصف نفسه بما وصفها به «الله ربكم» أي: المألوه المعبود المحمود، الربى جميع الخلق بالنعم وهو: «الحق فماداً بعد الحق إلا الضلال».

فإنه تعالى المنفرد بالخلق والتدبير لجميع الأشياء، الذي ما بالعباد من نعمة إلا منه، ولا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يدفع السيئات إلا هو، ذو الأسماء الحسنى والصفات الكاملة العظيمة والجلال والإكرام.

﴿فأني تصرفون﴾ عن عبادة من هذا وصفه، إل عبادة الذي ليس له من وجوده إلا العدم، ولا يملك لنفسه نقماً ولا ضراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

فليس له من الملك مثقال ذرة، ولا شركة له بوجه من الوجوه، ولا يشفع عند الله إلا بإذنه، فتباً لمن أشرك به، وويحاً لمن كفر به، لقد عدموا عقولهم بعد أن عدموا أديانهم، بل فقدوا دنياهم وأخرهم.

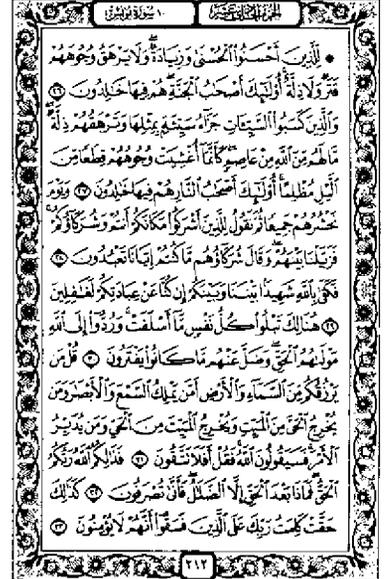
ولهذا قال [تعالى] عنهم: ﴿كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون﴾ بعد ما أراهم^(١) الله من الآيات البيّنات والبراهين الثورات ما فيه عبرة لأولي الأبواب، وموعظة للمتقين وهدى للعالمين.

فالملائكة الكرام والأنبياء والأولياء ونحوهم يتبرؤون ممن عبدتهم يوم القيامة ويتصلون من دعائهم إياهم إلى عبادتهم وهم الصادقون البارون في ذلك، فحينئذ يتحسر المشركون حسرة لا يمكن وصفها، ويعلمون مقدار ما قدموا من الأعمال، وما أسلفوا من ردى الخصال، ويتبين لهم يومئذ أنهم كانوا كاذبين، وأنهم مفترون على الله، قد ضلت عبادتهم، واضمحلت معبوداتهم، وتقطعت بهم الأسباب والوسائل.

ولهذا قال تعالى: ﴿هنالك﴾ أي: في ذلك اليوم «تبلو كل نفس ما أسلفت» أي: تنفق أعمالها وكسبها، وتتبعه بالجزاء، وتحجازى بحسبه، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وضل عنهم ما كانوا يفترون من قولهم بصحة ما هم عليه من الشرك وأن ما يعبدون من دون الله تنفعهم وتدفع عنهم العذاب.

﴿٣١-٣٣﴾ ﴿قل﴾ من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون * فذلكم الله ربكم الحق فماداً بعد الحق إلا الضلال فأني تصرفون * كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون﴾ أي: ﴿قل﴾ لهؤلاء الذين أشركوا بالله، ما لم ينزل به سلطاناً - محتجاً عليهم بما أقروا به من توحيد الربوبية، على ما أنكروه من توحيد الإلهية - «من يرزقكم من السماء والأرض» بإنزال الأرزاق من السماء، وإخراج أنواعها من الأرض، وتيسير أسبابها فيها؟

﴿أم من يملك السمع والأبصار﴾ أي: من هو الذي خلقهما وهو مالكهما؟، وخصهما بالذكر من باب التنبيه على المفضول بالفاضل، ولكمال شرفهما ونفعهما. ﴿ومن يخرج الحي من الميت﴾



يفترون﴾ يقول تعالى: «ويوم نحشرهم جميعاً» أي: نجتمع جميع الخلائق ليعاد يوم معلوم، ونحضر المشركين، وما كانوا يعبدون من دون الله.

﴿ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم﴾ أي: الزموا مكانكم ليقع التحاكم والفصل بينكم وبينهم. ﴿فزيّلنا بينهم﴾ أي: فرقنا بينهم، بالبعد البدني والقلبي، وحصلت بينهم العداوة الشديدة، بعد أن بذلوا لهم في الدنيا خالص المحبة وضمفوا الوداد، فانقلبت تلك المحبة والولاية بغضاً وعداوة.

وتبرأ شركاؤهم منهم وقالوا: ﴿ما كنتم إيانا تعبدون﴾ فإننا ننزه الله أن يكون له شريك أو نديد. ﴿فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين﴾ ما أمرناكم بها، ولا دعوناكم لذلك، وإنما عبدتم من دعاكم إلى ذلك، وهو الشيطان كما قال تعالى: ﴿ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾.

وقال: «ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون» قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم، بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون.

(١) في ب: بعد أن أراهم.

العالمين، لعاجله بالعقوبة ويأدره بالنكال .

﴿ولكن﴾ الله أنزل هذا الكتاب رحمة للعالمين، وحجة على العباد أجمعين .

أنزله ﴿تصديق الذي بين يديه﴾ من كتب الله السماوية، بأن وافقها وصدقها بما شهدت به، وبشرت بنزوله، فوقع كما أخبرت .

﴿وتفصيل الكتاب﴾ للحلال والحرام، والأحكام الدينية والقدرية، والإخبارات الصادقة .

﴿لا ريب فيه من رب العالمين﴾ أي: لا شك ولا مرية فيه بوجه من الوجوه، بل هو الحق اليقين: تنزيل من رب العالمين الذي ربى جميع الخلق بنعمه .

ومن أعظم أنواع تربيته أن أنزل عليهم هذا الكتاب الذي فيه مصالحهم الدينية والدنيوية، المشتمل على مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال .

﴿أم يقولون﴾ أي: المكذبون به عناداً وبعياً: ﴿افتراه﴾ محمد على الله، واختلقه، ﴿قل﴾ لهم - ملزماً لهم بشيء - إن قدروا عليه، أمكن ما ادَّعوه، وإلا كان قولهم باطلاً .

﴿فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ يعاونكم على الإتيان بسورة مثله، وهذا حال، ولو كان ممكناً لادعوا قدرتهم على ذلك، ولأتوا بمثله .

ولكن لما بان عجزهم تبين أن ما قالوه باطل، لا حظ له من الحجة، والذي حملهم على التكذيب بالقرآن المشتمل على الحق الذي لا حق فوقه، أنهم لم يحيطوا به علماً .

فلو أحاطوا به علماً وفهموه حق فهمه، لادعوا بالتصديق به، وكذلك إلى الآن لم يأتيهم تأويله الذي وعدهم أن ينزل بهم العذاب ويحل بهم النكال، وهذا التكذيب الصادر منهم من جنس تكذيب من قبلهم، ولهذا قال: ﴿كذلك كذب الذين من قبلهم فأنظر كيف كان عقاب الظالمين﴾ وهو الهلاك

الشیطان للإنسان، أقبح البيهتان، وأضل الضلال، حتى اعتقد ذلك وألفه وظنه حقاً، وهو لا شيء .

ولهذا قال: وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء أي: ما يتبعون في الحقيقة شركاء الله، فإنه لبس الله شريك أصلاً عقلاً ولا نقلاً، وإنما يتبعون الظن و ﴿إن الظن لا يغني من الحق شيئاً﴾ فسموها آلهة وعبدها مع الله، ﴿إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان﴾ .

﴿إن الله عليم بما يفعلون﴾ وسيجازيهم على ذلك بالعقوبة البليغة .

﴿٣٧ - ٤١﴾ ﴿وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين﴾ أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله

وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين * بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله كذلك كذب الذين من قبلهم فإنظر كيف كان عقاب الظالمين * ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به وربك أعلم بالمفسدين * وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون * يقول تعالى: ﴿وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله﴾ أي: غير ممكن ولا متصور، أن يفترى هذا القرآن على الله تعالى، لأنه الكتاب العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد * وهو الكتاب الذي لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، وهو كتاب الله الذي تكلم به [رب العالمين]، فكيف يقدر أحد من الخلق أن يتكلم بمثله، أو بما يقاربه، والكلام تابع لعظمة المتكلم ووصفه؟! .

فإن كان أحد يماثل الله في عظمته وأوصاف كماله، أمكن أن يأتي بمثل هذا القرآن، ولو تنزلنا على الفرض والتقدير، فتَقَوْلُه أحد على رب

﴿٣٤ - ٣٦﴾ ﴿قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده فأتى تؤفكون﴾ قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق قل الله يهدي للحق أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدي إلا أن يهدي فما لكم كيف تحكمون * وما يتبع أكثرهم إلا ظناً إن الظن لا يغني من الحق شيئاً إن الله عليم بما يفعلون * يقول تعالى - مبيناً عجز آلهة المشركين وعدم انصافها بما يوجب اتخاذها آلهة مع الله - : ﴿قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق﴾ أي: بيئته * ثم يعيده * وهذا استفهام بمعنى النفي والتقرير، أي: ما منهم أحد يبدأ الخلق ثم يعيده، وهي أضعف من ذلك وأعجز، ﴿قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ من غير مشارك ولا معاون له على ذلك .

﴿فأتى تؤفكون﴾ أي: تصرفون، وتحرفون عن عبادة المنفرد بالابتداء، والإعادة إلى عبادة من لا يخلق شيئاً وهم يخلقون .

﴿قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق﴾ ببيانه وإرشاده أو بإلهامه وتوقيفه .

﴿قل الله﴾ وحده ﴿يهدي للحق﴾ بالأدلة والبراهين، وبالإلهام والتوفيق، والإعانة إلى سلوك أقوم طريق .

﴿أمن لا يهدي﴾ أي: لا يهتدي ﴿إلا أن يهدي﴾ لعدم علمه وللضلاله، وهي شركاؤهم التي لا تهدي ولا تهتدي إلا أن تهدي * فما لكم كيف تحكمون * أي: أتى شيء جعلكم تحكمون هذا الحكم الباطل، بصحة عبادة أحد مع الله، بعد ظهور الحجة والبرهان أنه لا يستحق العبادة إلا الله وحده .

فإذا تبين أنه ليس في آلهتهم التي يعبدون مع الله أوصافاً معنوية ولا أوصافاً فعلية، تقتضي أن تعبد مع الله، بل هي متصفة بالنقائص الموجبة لبطان إلهيتها، فلا شيء جعلت مع الله آلهة؟

فالجواب: أن هذا من تزوين

إلى الصراط المستقيم والدين القويم، حيث فاتهم النعيم، واستحقوا دخول النار.

﴿٤٦﴾ ﴿وإما ترينك بعض الذي نعدهم أو نتوفيتك فإلينا مرجعهم ثم الله شهيد على ما يفعلون﴾ أي: لا تحزن أيها الرسول على هؤلاء المكذبين، ولا تستعجل لهم، فإنهم لا يد أن يصيبهم الذي نعدهم من العذاب.

﴿٤٧﴾ ﴿إما في الدنيا ففراه عينك، وتقر به نفسك.

﴿٤٨﴾ ﴿وإما في الآخرة بعد الوفاة، فإن مرجعهم إلى الله، وسينبئهم بما كانوا يعملون، أحصاه الله ونسوه، والله على كل شيء شهيد، ففيه الوعيد الشديد لهم، والتسلي للرسول الذي كذبه قومه وعاندوه.

﴿٤٩﴾ ﴿ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون﴾ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين * قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ يقول تعالى: ﴿ولكل أمة﴾ من الأمم الماضية ﴿رسول﴾ يدعوهم إلى توحيد الله ودينه.

﴿٥٠﴾ ﴿فإذا جاءهم﴾ هم ﴿رسولهم﴾ بالآيات، صدقه بعضهم وكذبه آخرون، فيقضي الله بينهم بالقسط بنجاة المؤمنين، وإهلاك المكذبين ﴿وهم لا يظلمون﴾ بأن يعذبوا قبل إرسال الرسول وبيان الحجة، أو يعذبوا بغير جرمهم، فليحذر المكذبون لك من مشابهة الأمم المهلكين، فيحل بهم ما حل بأولئك.

﴿٥١﴾ ﴿ولا يستبشروا العقوبة ويقولوا: ﴿متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ فإن هذا ظلم منهم، حيث طلبوه من النبي ﷺ، فإنه ليس له من الأمر شيء، وإنما عليه البلاغ والبيان للناس.

الذي لا يعقل للكلام، فهؤلاء المكذبون، كذلك ممنع إسماعك إياهم إسماعاً يتصفون به.

﴿٥٢﴾ ﴿وأما إسماع الحجة، فقد سمعوا ما تقوم عليهم به حجة الله البالغة، فهذا طريق عظيم من طرق العلم قد انسد عليهم، وهو طريق السموات المتعلقة بالخير.

﴿٥٣﴾ ﴿ثم ذكر انسداد الطريق الثاني، وهو: طريق النظر فقال: ﴿ومنهم من ينظر إليك﴾ فلا يفيد نظره إليك، ولا سير أحوالك شيئاً، فكما أنك لا تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون، فكذلك لا تهدي هؤلاء.

﴿٥٤﴾ ﴿فإذا فسدت عقولهم وأسماعهم وأبصارهم التي هي الطرق الموصلة إلى العلم ومعرفة الحقائق، فأين الطريق الموصل لهم إلى الحق؟

﴿٥٥﴾ ﴿ودل قوله: ﴿ومنهم من ينظر إليك﴾ الآية، أن النظر إلى حالة النبي ﷺ وهدية وأخلاقه وأعماله وما يدعو إليه من أعظم الأدلة على صدقه وصحة ما جاء به، وأنه يكفي البصير عن غيره من الأدلة.

﴿٥٦﴾ ﴿وقوله: ﴿إن الله لا يظلم الناس شيئاً﴾ فلا يزيد في سيئاتهم، ولا ينقص من حسناتهم.

﴿٥٧﴾ ﴿ولكن الناس أنفسهم يظلمون﴾ يجيئهم الحق فلا يقبلونه، فيعاقبهم الله بعد ذلك بالطبع على قلوبهم، والختم على أسماعهم وأبصارهم.

﴿٥٨﴾ ﴿٤٥﴾ ﴿ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم قد خسر الذين كذبوا بقاء الله وما كانوا مهتدين﴾ يخبر تعالى عن سرعة انقضاء الدنيا، وأن الله تعالى إذا حشر الناس وجعهم ليوم لا ريب فيه، كأنهم ما لبثوا إلا ساعة من نهار، وكأنه ما مر عليهم نعيم ولا بؤس، وهم يتعارفون بينهم، كحالهم في الدنيا، ففي هذا اليوم يريح المتقون، ويحشر الذين كذبوا بقاء الله وما كانوا مهتدين

الذي لم يبق منهم أحداً. فليحذر هؤلاء أن يستمروا على تكذيبهم، فيحل بهم ما أحل بالأمم المكذبين والقرون المهلكين.

﴿٥٩﴾ ﴿وفي هذا دليل على التثبيت في الأمور، وأنه لا ينبغي للإنسان أن يبادر بقبول شيء أو رده قبل أن يحيط به علماً.

﴿٦٠﴾ ﴿ومنهم من يؤمن به﴾ أي: بالقرآن وما جاء به، ﴿ومنهم من لا يؤمن به وربك أعلم بالمفسدين﴾ وهم الذين لا يؤمنون به على وجه العناد والظلم والفساد، فسيجازيهم على فسادهم بأشد العذاب.

﴿٦١﴾ ﴿وإن كذبوك﴾ فاستمر على دعوتك، وليس عليك من حسابهم من شيء، وما من حسابك عليهم من شيء، لكل عمله. ﴿فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون﴾ كما قال تعالى: ﴿من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها﴾.

﴿٦٢﴾ ﴿٤٢﴾ ﴿ومنهم من يستمعون إليك أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون﴾ ومنهم من ينظر إليك أفأنت تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون * إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون﴾ يخبر تعالى عن بعض المكذبين للرسول ولما جاء به، ﴿و﴾ أن ﴿منهم من يستمعون﴾ إلى النبي ﷺ وقت قراءته للوحي، لا على وجه الاسترشاد، بل على وجه التفرج والتكذيب وتطلب العثرات، وهذا استماع غير نافع ولا يجدي على أهله خيراً، لا جرم انسدهم باب التوفيق، وحرموا من فائدة الاستماع، ولهذا قال: ﴿أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون﴾ وهذا الاستفهام بمعنى النفي المقرر، أي: لا تسمع الصم الذين لا يستمعون القول ولو جهرت به، وخصوصاً إذا كان عقلهم معدوماً.

﴿٦٣﴾ ﴿فإذا كان من المحال إسماع الأصم

تحريم ما أحل الله وتحليل ما حرم^(١) :- ﴿قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق يعني أنواع الحيوانات المحللة، التي جعلها الله رزقاً لهم ورحمة في حقهم. قل لهم - موبخاً على هذا القول الفاسد :- ﴿الله أذن لكم أم على الله تفترون﴾ ومن المعلوم أن الله لم يأذن لهم فلعلم أنهم مفترون .

﴿وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة﴾ أن يفعل الله بهم من النكال، ويجل بهم من العقاب، قال تعالى : ﴿ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة﴾ .

﴿إن الله لذو فضل على الناس﴾ كثير، وذو إحسان جزيل، ولكن أكثر الناس لا يشكرون، إما أن لا يقوموا بشكرها، وإما أن يستعينوا بها على معاصيه، وإما أن يجرموا منها، ويردوا ما من الله به على عباده، وقليل منهم الشاكر الذي يعترف بالنعمة، ويثني بها على الله ويستعين بها على طاعته .

ويستدل هذه الآية على أن الأصل في جميع الأطعمة الحل، إلا ما ورد الشرع بتحريمه، لأن الله أنكر على من حرم الرزق الذي أنزله لعباده .

﴿٦١﴾ ﴿وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين﴾ يخبر تعالى

عن عموم مشاهدته وإطلاقه على جميع أحوال العباد في حركاتهم وسكناتهم، وفي ضمن هذا الدعوة لمراقبته على الدوام فقال : ﴿وما تكون في شأن﴾ أي: حال من أحوالك الدينية والدنيوية . ﴿وما تتلو منه من قرآن﴾ أي: وما تتلو من القرآن الذي أوحاه الله إليك .

﴿ولا تعملون من عمل﴾ صغير أو كبير ﴿إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه﴾ أي: وقت شروعكم فيه واستمراركم على العمل به .

والأجل، لمن اهتدى به، فالهتدى أجل الوسائل، والرحمة أكمل المقاصد والرغائب، ولكن لا يهتدي به، ولا يكون رحمة إلا في حق المؤمنين .

وإذا حصل الهدى وحلت الرحمة الناشئة عنه، حصلت السعادة والفلاح، والربح والتجاح، والفرح والسرور .

ولذلك أمر تعالى بالفرح بذلك فقال : ﴿قل بفضل الله﴾ الذي هو القرآن، الذي هو أعظم نعمة ومنة، وفضل تفضل الله به على عباده ﴿ورحمته﴾ الدين والإيمان، وعبادة الله ومحبته ومعرفته . ﴿فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون﴾ من متاع الدنيا ولذاتها .

فنعمة الدين المتصلة بسعادة الدارين، لا نسبة بينها وبين جميع ما في الدنيا، مما هو مضمحل زائل عن قريب .

وإنما أمر الله تعالى بالفرح بفضلته ورحمته، لأن ذلك مما يوجب انبساط النفس ونشاطها وشكرها لله تعالى، وقوتها، وشدة الرغبة في العلم والإيمان الداعي للازدياد منهما، وهذا

فرح محمود، بخلاف الفرح بشهوات الدنيا ولذاتها، أو الفرح بالباطل، فإن هذا مذموم كما قال تعالى عن قوم قارون له : ﴿لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين﴾ .

وكما قال تعالى في الذين فرحوا بما عندهم من الباطل المناقض لما جاء به الرسل : ﴿فلما جاءهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم﴾ .

﴿٥٩ - ٦٠﴾ ﴿قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً قل الله أذن لكم أم على الله تفترون﴾ وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون﴾ يقول تعالى - منكرأ على المشركين الذين ابتدعوا



لسخط الله، المتقضية لعقابه وتحذركم عنها بيان آثارها ومفاسدها .

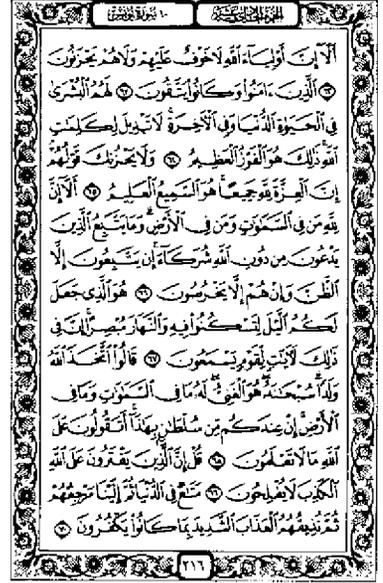
﴿وشفاء لما في الصدور﴾ وهو هذا القرآن، شفاء لما في الصدور من أمراض الشهوات الصادة عن الاقبياد للشرع وأمراض الشبهات، القاذحة في العلم اليقيني، فإن ما فيه من المواعظ والترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، مما يوجب للعبد الرغبة والرهبة .

وإذا وجدت فيه الرغبة في الخير، والرهبة من الشر، ونعماً على تكرر ما يرد إليها من معاني القرآن، أو جب ذلك تقديم مراد الله على مراد النفس، وصار ما يرضي الله أحب إلى العبد من شهوة نفسه .

وكذلك ما فيه من البراهين والأدلة التي صرّفها الله غاية التصريف، وبينها أحسن بيان، مما يزيل الشبه القاذحة في الحق، ويصل به القلب إلى أعلى درجات اليقين .

وإذا صح القلب من مرضه، ورفل بأثواب العافية، تبعته الجوارح كلها، فإنها تصلح بصلاحه، وتفسد بفساده، ﴿وهدى ورحمة للمؤمنين﴾ فالهتدى هو العلم بالحق والعمل به .

والرحمة هي ما يحصل من الخير والإحسان، والشوَاب العاجل



لا يفلحون * متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ﴿ يقول تعالى مخبراً عن بهت المشركين لرب العالمين ﴾ قالوا اتخذ الله ولداً ﴿ فنزه نفسه عن ذلك بقوله: ﴿ سبحانه ﴾ أي: تنزه عما يقول الظالمون في نسبة النقائص إليه علواً كبيراً، ثم برهن على ذلك بعدة براهين:

أحدها: قوله: ﴿ هو الغني ﴾ أي: الغنى منحصر فيه، وأنواع الغنى مستغرقة فيه، فهو الغني الذي له الغنى التام بكل وجه واعتبار من جميع الوجوه، فإذا كان غنياً من كل وجه، فلاي: شيء يتخذ الولد؟

الأحاجة منه إلى الولد، فهذا منافي لغناه فلا يتخذ أحد ولداً إلا لنقص في غناه.

البرهان الثاني، قوله: ﴿ له ما في السماوات وما في الأرض ﴾ وهذه كلمة جامعة عامة لا يخرج عنها موجود من أهل السماوات والأرض، الجميع مخلوقون عبيد ممالك.

ومن المعلوم أن هذا الوصف العام ينافي أن يكون له منهم ولد، فإن الولد من جنس والده، لا يكون مخلوقاً ولا مملوكاً. فملكته لما في السماوات والأرض عموماً تنافي الولادة.

البرهان الثالث، قوله: ﴿ إن عندكم من سلطان بهذا ﴾ أي: هل عندكم من حجة وبرهان يدل على أن الله ولداً، فلو كان لهم دليل لأبدوه، فلما تخداهم وعجزهم عن إقامة الدليل، علم بطلان ما قالوه. وأن ذلك قول بلا علم، ولهذا قال: ﴿ أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ فإن هذا من أعظم المحرمات.

﴿ قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ﴾ أي: لا يتألمون مطلوبهم، ولا يحصل لهم مقصودهم، وإنما يتمتعون في كفرهم وكذبهم في الدنيا قليلاً، ثم ينتقلون إلى الله ويرجعون إليه، فيذيقهم العذاب

الشديد بما كانوا يكفرون. ﴿ وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون ﴾.

﴿ ٧١ - ٧٣ ﴾ ﴿ وأتل عليهم نبأ نوح مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمّة ثم اقضوا إلي ولا تنظروني ﴾ فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن اجري إلا على الله وأسرت أن أكون من المسلمين * فكذبوه فنجيناه ومن معه في الفلك وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين ﴿ يقول تعالى لنبيه: واتل على قومك ﴿ نبأ نوح ﴾ في دعوته لقومه، حين دعاهم إلى الله مدة طويلة، فمكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، فلم يزداهم دعاؤه إياهم إلا طغياناً، فتملأوا منه وسموا، وهو عليه الصلاة والسلام غير متكاسل، ولا متوان في دعوتهم، فقال لهم: ﴿ يا قوم إن كان كبير عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله ﴾ أي: إن كان مقامي عندكم وتذكيري إياكم ما ينفعكم^(١) ﴿ بآيات الله ﴾ الأدلة الواضحة البينة، قد شق عليكم وعظم لديكم، وأردتم أن تتألوني بسوء أو تردوا الحق. ﴿ فعلى الله توكلت ﴾ أي: اعتمدت على الله في دفع كل شريراد بي، وبما أَدَعُو إِلَيْهِ، فهذا جندي وعُدِّي. وأنتم فأتوا بما قدرتم عليه، من أنواع العُدَّة والغُدَّة.

﴿ فأجمعوا أمركم ﴾ كلكم، بحيث لا يتخلف منكم أحد، ولا تذخروا^(٢) من مجهودكم شيئاً.

﴿ و ﴾ أحضروا ﴿ شركاءكم ﴾ الذي كنتم تعبدونهم وتوَلَّوْهُمْ من دون الله رب العالمين.

﴿ ثم لا يكن أمركم عليكم غمّة ﴾ أي: مشتتبهاً خفياً، بل ليكن ذلك ظاهراً علانية.

﴿ ثم اقضوا إلي ﴾ أي: اقضوا عليّ بالعقوبة والسوء الذي في إمكانكم، ﴿ ولا تنظروني ﴾ أي: لا تمهلوني ساعة

وافاك وهتان.

فإن كانوا صادقين في أنها شركاء الله، فليظهروا من أوصافها ما تستحق به مثقال ذرة من العبادة، فلن يستطيعوا، فهل منهم أحد يخلق شيئاً أو يرزق، أو يملك شيئاً من المخلوقات، أو يدبر الليل والنهار الذي جعله الله قياماً للناس؟

و ﴿ هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه ﴾ في النوم والراحة بسبب الظلمة، التي تغشى وجه الأرض، فلو استمر الضياء لما قرأوا ولما سكنوا.

﴿ و ﴾ جعل الله ﴿ النهار مبصراً ﴾ أي: مضيئاً، يبصر به الخلق، فيتصرفون في معاشهم، ومصالح دينهم ودنياهم.

﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾ عن الله سمع فهم وقبول واسترشاد، لا سمع تعنت وعتاد، فإن في ذلك لآيات لقوم يسمعون، يستدلون بها على أنه وحده المعبود وأنه الإله الحق، وأن إلهية ما سواه باطلة، وأنه الرؤوف الرحيم العليم الحكيم.

﴿ ٦٨ - ٧٠ ﴾ ﴿ قالوا اتخذ الله ولداً سبحانه هو الغني له ما في السماوات وما في الأرض إن عندكم من سلطان هذا أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ قل إن الذين يفترون على الله الكذب

﴿ ٦٨ - ٧٠ ﴾ ﴿ قالوا اتخذ الله ولداً سبحانه هو الغني له ما في السماوات وما في الأرض إن عندكم من سلطان هذا أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ قل إن الذين يفترون على الله الكذب

﴿ ٦٨ - ٧٠ ﴾ ﴿ قالوا اتخذ الله ولداً سبحانه هو الغني له ما في السماوات وما في الأرض إن عندكم من سلطان هذا أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ قل إن الذين يفترون على الله الكذب

﴿ ٦٨ - ٧٠ ﴾ ﴿ قالوا اتخذ الله ولداً سبحانه هو الغني له ما في السماوات وما في الأرض إن عندكم من سلطان هذا أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ قل إن الذين يفترون على الله الكذب

﴿ ٦٨ - ٧٠ ﴾ ﴿ قالوا اتخذ الله ولداً سبحانه هو الغني له ما في السماوات وما في الأرض إن عندكم من سلطان هذا أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ قل إن الذين يفترون على الله الكذب

﴿ ٦٨ - ٧٠ ﴾ ﴿ قالوا اتخذ الله ولداً سبحانه هو الغني له ما في السماوات وما في الأرض إن عندكم من سلطان هذا أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ قل إن الذين يفترون على الله الكذب

﴿ ٦٨ - ٧٠ ﴾ ﴿ قالوا اتخذ الله ولداً سبحانه هو الغني له ما في السماوات وما في الأرض إن عندكم من سلطان هذا أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ قل إن الذين يفترون على الله الكذب

﴿ ٦٨ - ٧٠ ﴾ ﴿ قالوا اتخذ الله ولداً سبحانه هو الغني له ما في السماوات وما في الأرض إن عندكم من سلطان هذا أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ قل إن الذين يفترون على الله الكذب

﴿ ٦٨ - ٧٠ ﴾ ﴿ قالوا اتخذ الله ولداً سبحانه هو الغني له ما في السماوات وما في الأرض إن عندكم من سلطان هذا أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ قل إن الذين يفترون على الله الكذب

(٢) في السخيتين: ولا تذخرون.

(١) في السخيتين: ما ينفعهم.

من نهار. فهذا برهان قاطع، وآية عظيمة على صحة رسالته، وصدق ما جاء به، حيث كان وحده لا عشيرة تحميه، ولا جنود تؤويه.

وقد بادأ^(١) قومه بتسفيه آرائهم وفساد دينهم وعيب آلهتهم. وقد حملوا من بغضه وعداوته ما هو أعظم من الجبال الرواسي، وهم أهل القدرة والسطوة، وهو يقول لهم: اجتمعوا أنتم وشركاؤكم ومن استطعتم، وأبدوا كل ما تقدرون عليه من الكيد، فأوقعوا بي إن قدرتم على ذلك، فلم يقدرُوا على شيء من ذلك.

فعلم أنه الصادق حقاً، وهم الكاذبون فيما يدعون، ولهذا قال: ﴿فإن توليتم﴾ عن ما دعوتكم إليه، فلا موجب لتوليكم، لأنه تبين أنكم لا تولون عن باطل إلى حق، وإنما تولون عن حق قامت الأدلة على صحته، إلى باطل قامت الأدلة على فساده.

ومع هذا ﴿فما سألتكم من أجر﴾ على دعوتي وعلى إجابتكم، فتقولوا: هذا جاءنا ليأخذ أموالنا، فتمتنعون لأجل ذلك.

﴿إن أجري إلا على الله﴾ أي: لا أريد الثواب والجزاء إلا منه، ﴿و﴾ أيضاً فإني ما أمرتكم بأمر وأخالفكم إلى ضده، بل ﴿أمرت أن أكون من المسلمين﴾ فأنا أول داخل وأول فاعل لما أمرتكم به.

﴿فكذبوه﴾ بعدما دعاهم ليلاً ونهاراً سراً وجهاراً، فلم يزداهم دعاؤه إلا فراراً، ﴿فنجيناه ومن معه في الفلك﴾ الذي أمرناه أن يصنعه بأعيننا، وقتلناه إذا فار التنور: ف ﴿احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن﴾ ففعل ذلك.

فأمر الله السماء بماء منهمر وفجر الأرض عيوناً، فالتقى الماء على أمر قد قدر: ﴿وحملناه على ذات ألواح ودسر﴾ تجري بأعيننا، ﴿وجعلناهم

خلائف﴾ في الأرض بعد إهلاك المكذبين.

ثم بارك الله في ذريته، وجعل ذريته هم الباقين، ونشرهم في أقطار الأرض، ﴿وأغرقتنا الذين كذبوا بآياتنا﴾ بعد ذلك البيان، وإقامة البرهان، ﴿فانظر كيف كان عاقبة المنذرين﴾ وهو: الهلاك المخزي، واللعنة المتابعة عليهم في كل قرن يأتي بعدهم، لا تسمع فيهم إلا لوماً، ولا ترى إلا قذحاً وذمًا.

فليحذر هؤلاء المكذبون، أن يحل بهم ما حل بأولئك الأقوام المكذبين من الهلاك والخزي والنكال.

﴿٧٤﴾ ﴿ثم بعثنا من بعده رسلاً إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل كذلك نطبع على قلوب المعتدين﴾ أي: ﴿ثم بعثنا﴾ من بعد نوح عليه السلام ﴿رسلاً إلى قومهم﴾ المكذبين، يدعوتهم إلى الهدى، ويمذروهم من أسباب الردى.

﴿فجاءوهم بالبينات﴾ أي: كل نبي أيد دعوته بالآيات الدالة على صحة ما جاء به.

﴿فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل﴾ يعني: أن الله تعالى عاقبهم حيث جاءهم الرسول، فبادروا بتكذيبه، طبع الله على قلوبهم، وحال بينهم وبين الإيمان بعد أن كانوا متمكنين منه، كما قال تعالى: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾.

ولهذا قال هنا: ﴿كذلك نطبع على قلوب المعتدين﴾ أي: نختم عليها، فلا يدخلها خير، وما ظلمهم [الله]، ولكنهم ظلّموا أنفسهم بردهم الحق لما جاءهم، وتكذيبهم الأول.

﴿٧٥﴾ ﴿ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون﴾ إلى آخر القصة^(٢). أي: ﴿ثم بعثنا﴾ من بعد هؤلاء الرسل الذين أرسلهم الله إلى القوم المكذبين



المهلكين.

﴿موسى﴾ بن عمران كليم الرحمن، أحد أولي العزم من المرسلين، وأحد الكبار المقنذى بهم، المنزل عليهم الشرائع المعظمة الواسعة.

﴿و﴾ جعلنا معه أخاه ﴿هارون﴾ وزيراً بعثناهما ﴿إلى فرعون وملئه﴾ أي: كبار دولته ورؤسائهم، لأن عامتهم تبع للرؤساء.

﴿بآياتنا﴾ الدالة على صدق ما جاء به من توحيد الله، والنهي عن عبادة ما سوى الله تعالى، ﴿فاستكبروا﴾ عنها ظملاً وعلواً، بعدما استبقوها.

﴿وكانوا قوماً مجرمين﴾ أي: وصفهم الإجماع والتكذيب.

﴿٧٦﴾ ﴿فلما جاءهم الحق من عندنا﴾ الذي هو أكبر أنواع الحق وأعظمها، وهو من عند الله الذي خضعت لعظمته الرقاب، وهو رب العالمين المربي جميع خلقه بالنعم.

فلما جاءهم الحق من عند الله على يد موسى، ردوه فلم يقبلوه، و﴿قالوا﴾ إن هذا لسحر مبين﴾ لم يكفهم - قبحهم الله - إعراضهم ولا ردهم إياه، حتى جعلوه أبطل الباطل، وهو السحر: الذي حقيقته التحويه، بل جعلوه سحراً مبيناً ظاهراً، وهو الحق

(١) في النسختين: باديء.

(٢) في بأكمل الآيات إلى قوله تعالى: ﴿إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾.



وهذا لا يحتاج به من عرف الحقائق وميز بين الأمور، فإن الحجج لا تدفع إلا بالحجج والبراهين .

وأما من جاء بالحق فرد قوله بأمثال هذه الأمور، فلإنها تدل على عجز موردها عن الإتيان بما يرد القول الذي جاءه به خصمه، لأنه لو كان له حجة لأوردها، ولم يلجأ إلى قوله: قصدك كذا، أو مرادك كذا، سواء كان صادقاً في قوله وإخباره عن قصد خصمه أم كاذباً، مع أن موسى عليه الصلاة والسلام كل من عرف حاله وما يدعو إليه، عرف أنه ليس له قصد في العلو في الأرض، وإنما قصده كقصد إخوانه المرسلين، هداية الخلق وإرشادهم لما فيه نفعهم .

ولكن حقيقة الأمر كما نطقوا به بقولهم: ﴿وما نحن لكما بمؤمنين﴾ أي: تكبراً وعناداً، لا لبطلان ما جاء به موسى وهارون، ولا لاشتباه فيه، ولا لغير ذلك من المعاني، سوى الظلم والعدوان، وإرادة العلو الذي رماوا به موسى وهارون .

﴿٧٩﴾ ﴿وقال فرعون﴾ معارضياً للحق الذي جاء به موسى ومغالطاً^(٢) لملته وقومه: ﴿أتئتوني بكل ساحر عليم﴾ أي: ماهر بالسحر، متقن له . فأرسل في مدائن مصر من أتاه بأنواع السحرة، على اختلاف أجناسهم وطبقاتهم .

﴿فلما جاء السحرة﴾ للمغالبة مع موسى^(٣) ﴿قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون﴾ أي: أي: شيء أردتم لا أعين لكم شيئاً، وذلك لأنه جازم بغلبته، غير مبال بهم وبما جاؤوا به .

﴿فلما ألقوا﴾ حبالهم وعصيهم، إذا هي كأنها حيات تسعى، ف ﴿قال موسى ما جئتم به السحر﴾ أي: هذا السحر الحقيقي العظيم، ولكن مع عظمته ﴿إن الله سيبطله﴾، إن الله لا يصلح عمل المفسدين ﴿فإنهم يريدون بذلك نصر الباطل على الحق، وأي: فساد أعظم من هذا؟!﴾

وهكذا كل مفسد عمل عملاً، واحتال كيداً، أو أتى بمكر، فإن عمله سيبطل ويضمحل، وإن حصل لعمله روجان في وقت ما، فإن مآله الاضمحلال والمحق .

وأما المصلحون الذين قصدهم بأعمالهم وجه الله تعالى، وهي أعمال ووسائل نافعة مأمور بها، فإن الله يصلح أعمالهم ويرقيها، وينميها على الدوام، فألقى موسى عصاه، فلتقف جميع ما صنعوا، فيبطل سحرهم، واضمحل باطلهم .

﴿٨٢﴾ ﴿ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون﴾ فألقى السحرة سجداً حين تبين لهم الحق . فتوعدهم فرعون بالصلب، وتقطع الأيدي والأرجل، فلم يبالوا بذلك وثبتوا على إيمانهم .

وأما فرعون وملؤه وأتباعهم، فلم يؤمن منهم أحد، بل استمروا في طغيانهم يعمهون .

ولهذا قال: ﴿فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه﴾ أي: شباب من بني إسرائيل صبروا على الخوف، لما ثبت في قلوبهم الإيمان .

﴿على خوف من فرعون وملائهم أن يقتنهم﴾ عن دينهم ﴿وإن فرعون لعال في الأرض﴾ أي: له التقهر والغلبة فيها، فحقيق بهم أن يخافوا من بطشه .

﴿و﴾ خصوصاً ﴿إنه﴾ كان ﴿لن المسرفين﴾ أي: المتجاوزين للحد في البغي والعدوان .

والحكمة - والله أعلم - بكونه ما آمن لموسى إلا ذرية من قومه، أن الذرية والشباب أقبل للحق، وأسرع له اقتياداً، بخلاف الشيخ ونحوهم، ممن تربى على الكفر فإنهم - بسبب ما مكث في قلوبهم من العقائد الفاسدة - أبعد من الحق من غيرهم .

﴿٨٤﴾ ﴿وقال موسى﴾ موصياً لقومه بالصبر، ومذكراً لهم ما يستعينون به على ذلك فقال: ﴿يا قوم إن كنتم آمنتم بالله﴾ فقوموا بوظيفة

المبين . ولهذا ﴿قال﴾ لهم ﴿موسى﴾ - موبخاً لهم عن ردهم الحق الذي لا يرده إلا أظلم الناس - : ﴿أتقولون للحق لما جاءكم﴾ أي: أتقولون إنه سحر مبين .

﴿أسحر هذا﴾ أي: فانظروا وصفه وما اشتمل عليه، فبمجرد ذلك يجزم بأنه الحق . ﴿ولا يفلح الساحرون﴾ لا في الدنيا ولا في الآخرة، فانظروا لمن تكون له العاقبة، ولن له الفلاح وعلى يديه النجاح . وقد علموا بعد ذلك وظهر لكل أحد أن موسى عليه السلام هو الذي أفلح وفاز بظفر الدنيا والآخرة .

﴿٧٨﴾ ﴿قالوا﴾ لموسى راديين لقوله بما لا يرده : ﴿أجئتنا لتفتنا عما وجدنا عليه آباءنا﴾ أي: أجئتنا لتصدنا عما وجدنا عليه آباءنا من الشرك وعبادة غير الله، وتأمرونا بأن نعبد الله وحده لا شريك له؟ فجعلوا قول آبائهم الضالين حجة، يردون بها الحق الذي جاءهم به موسى عليه السلام .

وقولهم^(١) : ﴿وتكونون لكمما الكبرياء في الأرض﴾ أي: وجئتمونا لتكونوا أنتم الرؤساء، ولتخرجوننا من أرضنا . وهذا تحويه منهم، وترويج على جهالهم، وتهيج لعوامهم على معادة موسى وعدم الإيمان به .

(١) في ب: وقوله .

(٢) في ب: ومغالياً .

(٣) في ب: للمغالبة لموسى .

الإيمان .

﴿فعلية توكلوا إن كنتم مسلمين﴾
أي : اعتمدوا عليه ، والجؤوا إليه واستصروه .

﴿٨٥﴾ ﴿فقالوا﴾ ممثلين لذلك
﴿على الله توكلنا ربنا لا نجعلنا فتنة
للقوم الظالمين﴾ أي : لا تسلطهم علينا
يفتتونا ، أو يغلبونا فيفتنون بذلك ،
ويقولون : لو كانوا على حق لما غلبوا .

﴿٨٦﴾ ﴿ونحنا برحمتك من القوم
الكافرين﴾ لنسلم من شرهم ، ولنقيم
[على] ديننا على وجه تتمكن به من إقامة
شرائعهم ، وإظهاره من غير معارض ولا
منازع .

﴿٨٧﴾ ﴿وأوحينا إلى موسى
وأخيه﴾ حين اشتد الأمر على قومهما
من فرعون وقومه ، وحرصوا على
فتنهم عن دينهم .

﴿أن تبوأ لقومكما بمصر بيوتاً﴾
أي : مروهم أن يجعلوا لهم بيوتاً
يتمكنون [به] من الاستخفاء فيها .

﴿واجعلوا بيوتكم قبلة﴾ أي :
اجعلوها محلاً تتصلون فيها ، حيث
عجزتم عن إقامة الصلاة في الكنائس
والبيع العامة .

﴿واقموا الصلاة﴾ فإنها معونة على
جميع الأمور ، ﴿وبشر المؤمنين﴾ بالنصر
والتأييد وإظهار دينهم ، فإن مع العسر
يسراً ، إن مع العسر يسراً ، وحين اشتد
الكرب وضاق الأمر ، فرّجه الله
ووسعه ، فلما رأى موسى القسوة
والإعراض من فرعون وملئه^(١) ، دعا
عليهم وأتمن هارون على دعائه ، فقال :

﴿٨٨﴾ ﴿ربنا إنك أتيت فرعون
وملأه زينة﴾ يتزينون بها من أنواع الخلي
والثياب ، والبيوت الزخرفة ، والمراكب
الفاخرة ، والخدم ، ﴿وأموالاً﴾ عظيمة
﴿في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن
سبيلك﴾ أي : إن أموالهم لم يستعينوا
بها إلا على الإضلال في سبيلك ،
فيضلون ويضلون .

﴿ربنا اطمس على أموالهم﴾ أي :

أتلّفها عليهم : إما بالهلاك ، وإما
بجعلها حجارة غير متفع بها .
﴿واشدد على قلوبهم﴾ أي : قسها
﴿فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب
الاليم﴾ .

قال ذلك غضباً عليهم ، حيث
تجرؤوا على محارم الله ، وأفسدوا
عباد الله ، وصدوا عن سبيله ، ولكمال
معرفة بربه ، بأن الله سيعاقبهم على ما
فعلوا ، بإغلاق باب الإيمان عليهم .

﴿٨٩﴾ ﴿قال﴾ الله تعالى ﴿قد
أجيبت دعوتكما﴾ هذا دليل على أن
موسى [كان] يدعو ، وهارون يؤمن
على دعائه ، وأن الذي يؤمن يكون
شريكاً للداعي في ذلك الدعاء .

﴿فاستقيما﴾ على دينكما ، واستمرا
على دعوتكما ، ﴿ولا تتبعان سبيل
الذين لا يعلمون﴾ أي : لا تتبعان
سبيل الجهال الضلال ، المنحرفين عن
الصراط المستقيم ، المتبعين لطرق
الجحيم ، فأمر الله موسى أن يسري
ببني إسرائيل ليلاً ، وأخبره أنهم
يتبعون ، وأرسل فرعون في المدائن
حاشرين يقولون : ﴿إن هؤلاء﴾ أي :
موسى وقومه : ﴿لشرذمة قليلون﴾
وإنهم لنا لغائظون ﴿وإننا لجميع
حاذرون﴾ .

فجمع جنوده قاصيهم ودانيهم ،
فأتبعهم بجنوده ، بغياً وعدواً ، أي :
خروجهم باغين على موسى وقومه ،
ومعتدين في الأرض ، وإذا اشتد البغي
واستحكمت الذنوب فانظر العقوبة .

﴿٩٠﴾ ﴿وجاوزنا بني إسرائيل
البحر﴾ وذلك أن الله أوحى إلى موسى
لما وصل البحر ، أن يضربه بعصاه
فضربه ، فانفلق اثني عشر طريقاً ،
وسلكه بنو إسرائيل ، وساق فرعون
وجنوده خلفه^(٢) داخلين .

فلما استكمل موسى وقومه
خارجين من البحر ، وفرعون وجنوده
داخلين فيه ، أمر الله البحر فالتطم على
فرعون وجنوده ، فأغرقهم ، وبنى



إسرائيل ينظرون .

حتى إذا أدرك فرعون الفرق ،
وجزم بهلاكه ﴿قال﴾ أمّنت أنه لا إله إلا
الذي أمّنت به بنو إسرائيل ﴿وهو الله
الإله الحق الذي لا إله إلا هو﴾ و﴿أنا
من المسلمين﴾ أي : المنقادين
لدين الله ، ولما جاء به موسى .

﴿٩١﴾ ﴿قال الله تعالى﴾ - مبيّناً أن
هذا الإيمان في هذه الحالة غير نافع
له - : ﴿الآن﴾ تؤمن ، وتقر
برسول الله ﴿وقد عصيت قبل﴾ أي :
بارزت بالمعاصي ، والكفر والتكذيب
﴿وكنّت من المفسدين﴾ فلا ينفعك
الإيمان كما جرت عادة الله ، أن
الكفار إذا وصلوا إلى هذه الحالة
الاضطرارية أنه لا ينفعهم إيمانهم ،
لأن إيمانهم صار إيماناً مشاهدأ كإيمان
من ورد القيامة ، والذي ينفع إنما هو
الإيمان بالغيب .

﴿٩٢﴾ ﴿فاليوم ننحيك بيدنك
لتكون لمن خلفك آية﴾ قال المفسرون :
إن بني إسرائيل لما في قلوبهم من
الرب العظيم من فرعون ، كأنهم لم
يصدقوا بإغراقه ، وشكّوا في ذلك ،
فأمر الله البحر أن يلقيه على نجوة
مرتفعة ببدنه ، ليكون لهم عبرة وآية .

﴿وإن كثيراً من الناس عن آياتنا

(١) في النسختين : وملئهم ، ولعل الصواب ما أثبت .

(٢) في أ : وجنودهم خلفهم ، وفي ب عدلت إلى : وجنوده خلفه .



هو موجب ذلك، ثم حصل من تضليل بعضهم لبعض، وعداوة بعضهم لبعض، ما هو قرة عين اللعين.

الصادقين منهم. وأما من عداهم، فلو كانوا أكثر من غيرهم فلا عبرة فيهم، لأن الشهادة مبنية على العدالة والصدق، وقد حصل ذلك بإيمان كثير من أحبارهم الربانيين، كـ «عبد الله بن سلام» لأصحابه وكثير ممن أسلم في وقت النبي ﷺ وخلفائه ومن بعده^(١) و «كعب الأحبار» وغيرهما.

وإذا كان ربهم واحداً، ورسولهم واحداً، ودينهم واحداً، ومصالحهم العامة متفقة، فلا شيء يختلفون اختلافاً يفرق شملهم، ويشنت أمرهم، ويجعل رابطتهم ونظامهم، فيفوت من مصالحهم الدينية والدنيوية ما يفوت، ويموت من دينهم بسبب ذلك ما يموت؟

ومنها: أن شهادة أهل الكتاب للرسول ﷺ مبنية على كتابهم التوراة الذي يتسبون إليه.

فنسألك اللهم لطفاً بعبادك المؤمنين، يجمع شملهم ويرأب صدعهم، ويرد قاصيهم على دانيهم، يا ذا الجلال والإكرام.

فإذا كان موجوداً في التوراة ما يوافق القرآن ويصدق، ويشهد له بالصحة، فلو اتفقوا من أولهم لآخرهم^(٢) على إنكار ذلك لم يقدح بما جاء به الرسول.

﴿٩٤ - ٩٥﴾ فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين * ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكونن من الخاسرين يقول تعالى لنبية محمد ﷺ: ﴿فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك هل هو صحيح أم غير صحيح؟﴾

ومنها: أن الله تعالى أمر رسوله أن يستشهد بأهل الكتاب على صحة ما جاءه، وأظهر ذلك وأعلنه على رؤوس الأشهاد.

﴿فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك﴾ أي: اسأل أهل الكتاب المتصفين، والعلماء الراشخين، فإنهم سيقرون لك بصدق ما أخبرت به، وموافقته لما معهم، فإن قيل: إن كثيراً من أهل الكتاب من اليهود والنصارى، بل ربما كان أكثرهم ومعظمهم كذبوا رسول الله وعاندوه، وردوا عليه دعوته.

ومن المعلوم أن كثيراً منهم من أحرص الناس على إبطال دعوة الرسول محمد ﷺ، فلو كان عندهم ما يرد ما ذكره الله، لأبدوه وأظهروه وبينوه، فلما لم يكن شيء من ذلك، كان عدم رد المعادي، وإقرار المستحيب من أدل الأدلة على صحة هذا القرآن وصدقه.

﴿إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ بحكمه العدل الناشئ عن علمه التام، وقدرته الشاملة، وهذا هو الداء الذي يعرض لأهل الدين الصحيح.

ومنها: أنه ليس أكثر أهل الكتاب رد دعوة الرسول، بل أكثرهم استجاب لها وانقاد طوعاً واختياراً، فإن الرسول بعث وأكثر أهل الأرض المتدينين أهل كتاب^(٣).

فالجواب عن هذا من عدة أوجه: منها: أن الشهادة إذا أضيفت إلى طائفة، أو أهل مذهب، أو بلد ونحوهم، فإنها إنما تتناول العدول

فلم يمكث دينه مدة غير كثيرة، حتى انقاد للإسلام أكثر أهل الشام، ومصر والعراق وما جاورها من البلدان التي هي مقر دين أهل الكتاب، ولم يبق إلا أهل الرياسات الذين آثروا رياستهم على الحق، ومن تبعهم من العوام الجهلة، ومن تدين بدينهم اسماً لا معنى، كالإفرنج الذين حقيقة أمرهم

لغافلون ﴿ فلذلك عر عليهم وتكرر فلا يتفقون بها لعدم إقبالهم عليها.

وأما من له عقل وقلب حاضر، فإنه يرى من آيات الله ما هو أكبر دليل على صحة ما أخبرت به الرسل.

﴿٩٣﴾ ولقد بوأنا بني إسرائيل مبعواً صدق ﴿ أي: أنزلهم الله وأسكنهم في مساكن آل فرعون، وأورثهم أرضهم وديارهم.

﴿ورزقناهم من الطيبات﴾ من المطاعم والمشارب وغيرهما ﴿فما اختلفوا﴾ في الحق ﴿حتى جاءهم العلم﴾ الموجب لاجتماعهم واتلافهم، ولكن بغى بعضهم على بعض، وصار لكثير منهم أهوية وأغراض تخالف الحق، فحصل بينهم من الاختلاف شيء كثير.

﴿إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ بحكمه العدل الناشئ عن علمه التام، وقدرته الشاملة، وهذا هو الداء الذي يعرض لأهل الدين الصحيح.

وهو: أن الشيطان إذا أعجزوه أن يطيعوه في ترك الدين بالكلية، سعى في التحريش بينهم، وإلقاء العداوة والبغضاء، فحصل من الاختلاف ما

(١) زيادة من هامش ب، بخط المؤلف، وقد شطبت في ب الجملة التالية وهي قوله (وكعب الأحبار وغيرهما).

(٢) في النسختين: وأخزهم ولعل الصواب ما أثبت.

(٣) في ب: أهل الكتاب.

تدركها أفهامنا .
قال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ يونس لمن المرسلين ﴾ إلى قوله : ﴿ فأرسلناه إلى مئة ألف أو يزيدون ﴾ فآمنوا فممتعناهم إلى حين ﴾ ولعل الحكمة في ذلك أن غيرهم من المهلكين ، لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه .

وأما قوم يونس فإن الله علم أن إيمانهم سيستمر ، لبل قد استمر فعلاً وثبتوا عليه^(١) والله أعلم .

﴿ ٩٩ - ١٠٠ ﴾ ﴿ ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾ وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون ﴾ يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ : ﴿ ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً ﴾ بأن يلهمهم الإيمان ، ويوزع قلوبهم للتقوى ، فقد رته صالحة لذلك ، ولكنه اقتضت حكمته أن كان بعضهم مؤمنين وبعضهم كافرين .

﴿ أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾ أي : لا تقدر على ذلك ، وليس في إمكانك ، ولا قدرة لغير الله^(٢) [على^(٣)] شيء من ذلك .

﴿ وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ﴾ أي : بإرادته ومشيئته وإذنه القدرى الشرعى ، فمن كان من الخلق قابلاً لذلك ، يزكو عنده الإيمان ، وفقه وهده .

﴿ ويجعل الرجس ﴾ أي : الشر والضلال ﴾ على الذين لا يعقلون ﴾ عن الله وأمره ونواهيته ، ولا يلقون بالألئصاحته ومواظبه .

﴿ ١٠١ - ١٠٣ ﴾ ﴿ قل انظروا ماذا في السماوات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴾ فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم قل فانظروا إني معكم من المنتظرين ﴾ ثم ننجي رسلنا والذين

وأسماعهم وأبصارهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم الذي وعدوا به . فحينئذ يعلمون حق اليقين أن ما هم عليه هو الضلال ، وأن ما جاءتهم به الرسل هو الحق . ولكن في وقت لا يجدي عليهم إيمانهم شيئاً ، فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون ، وأما الآيات فإنها تنفع من له قلب ، أو ألقى السمع وهو شهيد .

﴿ ٩٨ ﴾ ﴿ فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين ﴾ يقول تعالى : ﴿ فلولا كانت قرية ﴾ من قرى المكذبين ﴾ آمنت ﴾ حين رأت العذاب ﴾ فنفعها إيمانها ﴾ أي : لم يكن منهم أحد انتفع بإيمانه حين رأى العذاب ، كما قال تعالى عن فرعون ما تقدم قريباً ، لما قال : ﴿ آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين ﴾ فقيل له ﴿ آلان وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين .

وكما قال تعالى : ﴿ فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده ، وكفرنا بما كنا به مشركين ﴾ فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأساً سنة الله التي قد خلت في عباده ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعوني ﴾ لعلني أعمل صالحاً فيما تركت كلا ﴾ .

والحكمة في هذا ظاهرة ، فإن الإيمان الاضطرابي ليس بإيمان حقيقة ، ولو صرف عنه العذاب والأمر الذي اضطره إلى الإيمان ، لرجع إلى الكفران .

وقوله : ﴿ إلا قوم يونس لما آمنوا ﴾ بعدما رأوا العذاب ، ﴿ كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين ﴾ فهم مستثنون من العموم السابق ، ولا بد لذلك من حكمة لعالم الغيب والشهادة لم تصل إلينا ، ولم

أنهم دهرية منحلون عن جميع أديان الرسل ، وإنما انتسبوا للدين المسيحي ترويحاً لملكهم ، وتمويحاً لباطلهم ، كما يعرف ذلك من عرف أحوالهم البيئة الظاهرة .

وقوله : ﴿ لقد جاءك الحق ﴾ أي : الذي لا شك فيه بوجه من الوجوه ولهذا قال : ﴿ من ربك فلا تكونن من الممتريين ﴾ كقوله تعالى : ﴿ كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه .

﴿ ٩٥ ﴾ ﴿ ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكونن من الخاسرين ﴾ وحاصل هذا أن الله نهى عن شيئين : الشك في هذا القرآن والامتراء فيه .

وأشد من ذلك التكذيب به ، وهو آيات الله البينات التي لا تقبل التكذيب بوجه ، ورتب على هذا الخسار ، وهو عدم الريح أصلاً ، وذلك بفوات الشواب في الدنيا والآخرة ، وحصول العقاب في الدنيا والآخرة ، والنهي عن الشيء أمر بضده ، فيكون أمراً بالتصديق التام بالقرآن ، وطمانينة القلب إليه ، والإقبال عليه علماً وعملاً .

فبذلك يكون العبد من الراجحين الذين أدركوا أجل المطالب ، وأفضل الرغائب وأتم المناقب ، وانتفى عنهم الخسار .

﴿ ٩٦ - ٩٧ ﴾ ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ﴾ ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾ يقول تعالى : ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك ﴾ أي : إنهم من الضالين الغاوين أهل النار ، لا بد أن يصيروا إلى ما قدره الله وقضاه ، فلا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية ، فلا تزيدهم الآيات إلا طغياناً وغياً إلى غيهم .

وما ظلمهم الله ، ولكن ظلموا أنفسهم بردهم للحق لما جاءهم أول مرة ، فعاقبهم الله بأن طبع على قلوبهم

(١) زيادة من هامش ب .

(٢) في النسختين : غير الله ، وكان لا بد من زيادة اللام لتستقيم العبارة .

(٣) زيادة يقتضيه السياق .

للعبيادة، فإنه النافع الضار، المعطي المانع، الذي إذ مس بضر، كفقير ومرض، ونحوها ﴿فلا كاشف له إلا هو﴾ لأن الخلق لو اجتمعوا على أن ينفعوا بشيء، لم ينفعوا إلا بما كتبه الله، ولو اجتمعوا على أن يضروا أحداً لم يقدروا على شيء من ضرره، إذ لم يرد الله، ولهذا قال: ﴿وإن يردك بخير فلا راد لفضله﴾ أي: لا يقدر أحد من الخلق، أن يرد فضله وإحسانه، كما قال تعالى: ﴿وما يفتح الله للناس من رحمة، فلا ممسك لها، وما يمسك فلا مرسل له من بعده﴾.

﴿يصيب به من يشاء من عباده﴾ أي: يختص برحمته من شاء من خلقه، والله ذو الفضل العظيم، ﴿وهو الغفور﴾ لجميع الزلات، الذي يوفق عبده لأسباب مغفرته، ثم إذا فعلها العبد، غفر الله ذنوبه كبارها وصغارها.

﴿الرحيم﴾ الذي وسعت رحمته كل شيء، ووصل جوده إلى جميع الموجودات، بحيث لا تستغني عن إحسانه طرفة عين، فإذا عرف العبد بالدليل القاطع أن الله هو المنفرد بالنعم، وكشف النقم، وإعطاء الحسنات، وكشف السيئات والكربات، وأن أحداً من الخلق، ليس بيده من هذا شيء إلا ما أجراه الله على يده، جزم بأن الله هو الحق، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل.

ولهذا - لما بين الدليل الواضح قال بعده: -

﴿١٠٨ - ١٠٩﴾ ﴿قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل * واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين﴾ أي: ﴿قل﴾ يا أيها الرسول، لما تبين البرهان ﴿يا أيها الناس قد جاءكم الحق

محمد ﷺ سيد المرسلين، وإمام المتقين وخير الموقنين: ﴿قل يا أيها الناس إن كنتم في شك من ديني﴾ أي: في ريب واشتباه، فإنني لست في شك منه، بل لدي العلم اليقيني أنه الحق، وأن ما تدعون من دون الله باطل، ولي على ذلك الأدلة الواضحة والبراهين الساطعة، ولهذا قال: ﴿فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله﴾ من الأنداد والأصنام وغيرها، لأنها لا تخلق ولا ترزق، ولا تدبر شيئاً من الأمور، وإنما هي مخلوقة مسخرة، ليس فيها ما يقتضي عبادتها.

﴿ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم﴾ أي: هو الله الذي خلقكم، وهو الذي يميئتمكم ثم يبعثكم ليجازيكم بأعمالكم، فهو الذي يستحق أن يعبد ويصلى له ويخضع ويسجد.

﴿وأمرت أن أكون من المؤمنين * وأن أقم وجهك للدين حنيفاً﴾ أي: أخلص أعمالك الظاهرة والباطنة لله، وأقم جميع شرائع الدين حنيفاً، أي: مقبلاً على الله، معرضاً عما سواه، ﴿ولا تكونن من المشركين﴾ لا في حالهم، ولا تكن معهم.

﴿١٠٦﴾ ﴿ولا تدع من دون الله مالا ينفك ولا يضر﴾ وهذا وصف لكل مخلوق، أنه لا ينفع ولا يضر، وإنما النافع الضار هو الله تعالى.

﴿فإن فعلت﴾ بأن^(١) دعوت من دون الله مالا ينفك ولا يضر ﴿فإنك إذا من الظالمين﴾ أي: الضارين أنفسهم بإهلاكها، وهذا الظلم هو الشرك كما قال تعالى: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ فإذا كان خير الخلق، لو دعا مع الله غيره، لكان من الظالمين المشركين فكيف بغيره!!

﴿١٠٧﴾ ﴿وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم﴾ هذا من أعظم الأدلة على أن الله وحده المستحق

آمنوا كذلك حقاً علينا ننج المؤمنين﴾ يدعو تعالى عباده إلى النظر لما في السماوات والأرض، والمراد بذلك: نظر الفكر والاعتبار والتأمل، لما فيها وما تحتوي عليه، والاستبصار، فإن في ذلك آيات لقوم يؤمنون، وعبراً لقوم يوقنون، تدل على أن الله وحده المعبود المحمود، ذو الجلال والإكرام، والأسماء والصفات العظام.

﴿وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾ فإنهم لا ينفعون بالآيات لإعراضهم وعنادهم.

﴿فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم﴾ أي: فهل ينتظر هؤلاء الذين لا يؤمنون بآيات الله بعد وضوحها، ﴿إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم﴾ أي: من الهلاك والعقاب، فإنهم صنعوا كصنيعهم، وسنة الله جارية في الأولين والآخرين.

﴿قل فانتظروا إنني معكم من المنتظرين﴾ فستعلمون لمن تكون له العاقبة الحسنة، والنجاة في الدنيا والآخرة، وليست إلا للرسول وأتباعهم.

ولهذا قال: ﴿ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا﴾ من مكاره الدنيا والآخرة وشدادتها.

﴿كذلك حقاً علينا﴾ أوجبناه على أنفسنا ﴿تنجي المؤمنين﴾ وهذا من دفعه عن المؤمنين فإن الله يدافع عن الذين آمنوا، فإنه - بحسب ما مع العبد من الإيمان - تحصل له النجاة من المكاره.

﴿١٠٤ - ١٠٦﴾ ﴿قل يا أيها الناس إن كنتم في شك من ديني فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم وأمرت أن أكون من المؤمنين * وأن أقم وجهك للدين حنيفاً ولا تكونن من المشركين * ولا تدع من دون الله مالا ينفك ولا يضر﴾ فإن فعلت فإنك إذا من الظالمين﴾ يقول تعالى لنبيه

تفسير سورة هود عليه الصلاة والسلام، [وهي] مكية

من ربكم ﴿ أي: الخبير الصادق المؤيد بالبراهين، الذي لا شك فيه بوجه من الوجوه، وهو واصل إليكم من ربكم الذي من أعظم تربيته لكم، أن أنزل إليكم هذا القرآن الذي فيه تبيان لكل شيء، وفيه من أنواع الأحكام والمطالب الإلهية والأخلاق المرضية، ما فيه أعظم تربية لكم، وإحسان منه إليكم، فقد تبين الرشد من الغي ولم يبق لأحد شبهة.

﴿ فمن اهتدى ﴾ يهدي الله بأن علم الحق وتفهمه، وأثره على غيره، فلنفسه والله تعالى غني عن عبادته، وإنما ثمرة أعمالهم راجعة إليهم.

﴿ ومن ضل ﴾ عن الهدى بأن أعرض عن العلم بالحق، أو عن العمل به، ﴿ فإنما يضل عليها ﴾ ولا يضر الله شيئاً، فلا يضر إلا نفسه.

﴿ وما أنا عليكم بوكيل ﴾ فأحفظ أعمالكم وأحاسبكم عليها، وإنما أنا لكم نذير مبين، والله عليكم وكيل. فانظروا لأنفسكم ما دمتم في مدة الإمهال.

﴿ واتبع ﴾ أي الرسول ﴿ ما يوحى إليك ﴾ علماً وعملاً وحالاً، ودعوة إليه، ﴿ واصبر ﴾ على ذلك، فإن هذا أعلى أنواع الصبر، وإن عاقبته حميدة، فلا تكسل ولا تضجر، بل دم على ذلك واثبت، ﴿ حتى يحكم الله بينك وبين من كذبك ﴾ وهو خير الحاكمين ﴿ فإن حكمه مشتمل على العدل التام والقسط الذي يحمد عليه.

وقد امثل ﷺ أمر ربه، وثبت على الصراط المستقيم، حتى أظهر الله دينه على سائر الأديان، ونصره على أعدائه بالسيف والسنان، بعدما نصره [الله] عليهم بالحجة والبرهان، فله الحمد، والشأن الحسن، كما ينبغي لجلاله وعظمته وكماله وسعة إحسانه.

تم تفسير سورة يونس والحمد لله رب العالمين

﴿ ١ - ٤ ﴾ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ * الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير * ألا تعبدوا إلا الله إنني لكم منه نذير وبشير * وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير * إلى الله مرجعكم وهو على كل شيء قدير ﴿ يقول تعالى: هذا ﴿ كتاب ﴾ عظيم، ونزل كريم، ﴿ أحكمت آياته ﴾ أي: أتقنت وأحسننت، صادقة أخيارها، عادلة أوامرها ونواهيها، فصيحة ألفاظه بية معانيه.

﴿ ثم فصلت ﴾ أي: ميزت وبينت بياناً في أعلى أنواع البيان، ﴿ من لدن حكيم ﴾ يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها، لا يأمر ولا ينهى إلا بما تقتضيه حكمته، ﴿ خبير ﴾ مطلع على الظواهر والبواطن.

﴿ ٢ ﴾ فإذا كان إحكامه وتفصيله من عند الله الحكيم الخبير، فلا تسأل بعد هذا عن عظمته وجلالته واشتماله على كمال الحكمة وسعة الرحمة. وإنما أنزل الله كتابه ل ﴿ ألا تعبدوا إلا الله ﴾ أي: لأجل إخلاص الدين كله لله، وأن لا يشرك به أحد من خلقه.

﴿ إنني لكم ﴾ أيها الناس ﴿ منه ﴾ أي: من الله ربكم ﴿ نذير ﴾ لمن تجرأ على المعاصي بعقاب الدنيا والآخرة، ﴿ وبشير ﴾ للمطيعين لله بثواب الدنيا والآخرة.

﴿ ٣ ﴾ ﴿ وأن استغفروا ربكم ﴾ عن ما صدر منكم من الذنوب ﴿ ثم توبوا إليه ﴾ فيما تستقبلون من أعماركم بالرجوع إليه، بالإجابة والرجوع عما يكرهه الله إلى ما يحبه ويرضاه.

ثم ذكر ما يترتب على الاستغفار والتوبة فقال: ﴿ يمتعكم متاعاً حسناً ﴾ أي: يعطيكم من رزقه ما تتمتعون به



وتستغفرون.

﴿ إلى أجل مسمى ﴾ أي: إلى وقت وفاتكم ﴿ ويؤت ﴾ منكم ﴿ كل ذي فضل فضله ﴾ أي: يعطي أهل الإحسان والبر من فضله وبره، ما هو جزاء لإحسانهم، من حصول ما يحبون، ودفع ما يكرهون.

﴿ وإن تولوا ﴾ عن ما دعوتكم إليه، بل أعرضتم عنه، وربما كذبتم به ﴿ فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير ﴾ وهو يوم القيامة الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين، فيجازيهم بأعمالهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

وفي قوله: ﴿ وهو على كل شيء قدير ﴾ كالدليل على إحياء الله الموتى، فإنه قدير على كل شيء (١)، ومن جملة الأشياء إحياء الموتى، وقد أخبر بذلك وهو أصدق القائلين، فيجب وقوع ذلك عقلاً ونقلاً.

﴿ ٥ ﴾ ﴿ ألا إنهم يشنون صدورهم ليعلم ما يسرون وما يعلنون إنه علم بذات الصدور ﴾ يخبر تعالى عن جهل المشركين، وشدة ضلالهم، أنهم ﴿ يشنون صدورهم ﴾ أي: يميلونها ﴿ ليستخفوا ﴾ من الله، فتقع صدورهم

(١) في ب: فإنه على كل شيء قدير.